كلمات القرآن

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

[الكهف: ١٠٩]

قلت: لعلك قد رضيت وزال وجدك على؟

ابتسم قائلاً: وكيف أجد عليك وإنما أنت انا؟! على أن لا تقتر فى حديثك - كعهدى بك - فلا يخرج من مكمنه إلا بعد لأى واستثارة.

قلت: وإنى لا أرضى من نفسى إلا أن تكون راضياً. وها أنا ذا لن أنتظرك حتى تشير إلى أو تقترح على، إن إعجاز القرآن بعد حروفه لفى ألفاظه وكلماته.

قاطعنى قائلا: ألفاظه وكلماته! انتظر قليلاً.

قلت: أنتظر؟ ماذا أنتظر؟!

قال: كدت أنسى! تلك الكلمات الغريبة!

قلت: أى كلمات غريبة تعنى؟!

قال: هذه الكلمات التى حيرتنى وذهبت فيها وجئت، وما اهتديت فيها إلى شئ يرضينى.

قلت مبتسماً: تالله ما رأيت أعجب منك! ما انتهيت من عتابك لى حتى عدت لسابق عهدك تبادرنى ولا تمهلنى! فكن شاهداً على نفسك.

قال ضاحكاً: تجاوز لى عن هذه! آخر مرة!

انظر إلى هذه الآية فى سورة النساء: ﴿ **لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ١٦٢]، وإلى سورة المائدة: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾

[المائدة: ٦٩]

بل دعك من هذه الآيات وتأمل هذه الآية العجيبة فى سورة طه: ﴿ **قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ** ﴾ [طه: ٦٣] (١).

قلت: فما هو الغريب الذى يحيرك فى هذه الآيات حتى تذهب فيه وتجئ؟

قال متعجباً: ألا تعرف حقاً أم تتظاهر أنك لا تعرف؟ ظننت لها تفسيراً عندك ثم ابتسم قائلاً: يبدو أنك قد وقعت هذه المرة!

قلت مبتسماً: لا. ولا هذه المرة أيضاً.

قال: فإذا أخبرني: فى آية النساء: ﴿ **الرَّاسِخُونَ** ﴾ و﴿ **الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ و﴿ **الْمُؤْتُونَ** ﴾ و﴿ **الْمُؤْمِنونَ** ﴾ كلها مرفوعة فى سياق واحد لا شذوذ فيه. وبينها تصطدم العين ويقف العقل فى ﴿ **الْمُقِيمِينَ** ﴾ المنصوبة هذه لا أدرى أم المجرورة.

لقد وقفت عندها عيناى وأبى عقلى أن يتزحزح. الأسماء قبلها مرفوعة وبعدها مرفوعة، وهى وحدها تخالف ما قبلها وما بعدها. لقد جعلت أُقلِّب الآية وأتأمل الكلمة وأتركها ثم أعود إليها وما وجدت شيئاً يفسرها لى.

قلت: وإذاً؟

قال: وإذاً قلت: أيعقل أن تكون خطأ فى النحو ولحناً فى الإعراب؟

قلت: فإذا قد عاودك الشك. وأنا الذى كنت أحسبك قد برئت من دائك.

قال: لا. لا تعجل علىَّ وتلوى عنق الأمر هكذا. فليس هذا بداء. ولو لم أقف أنا أو غيرى لنسأل فما فائدة العقول إذاً؟

قلت: غلبتنى! أتعرف يا فصيح اللسان ما فائدة هذا التغيير فى هذه

---

(١) رواية حفص عن عاصم الكوفى فى المصاحف بتخفيف النون ﴿ **إِنْ** ﴾، وهى أيضاً قراءة ابن كثير المكى مع إشباع مد ألف ﴿ **هَذَانِ** ﴾ وتشديد نونها. والقراءة بالتشديد ﴿ **إِنَّ** ﴾ هى رواية أبى بكر شعبة عن عاصم، وهى قراءة عامة القراء.

الكلمة ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ ﴾ ومخالفتها فى الإعراب لكل الصفات قبلها وبعدها؟

قال: لو كنت أعرف فلم سألتك؟

قلت: فائدة هذه المخالفة العظيمة هى أن تأسر البصر وتستوقف العقل فيها، تماماً كما فعلت بك.

قال: فليكن! قد أسرت البصر بغرابتها واستوقفت العقل بمخالفتها، فماذا بعد؟

قلت: فإذا أسرت بصرك واستوقفت عقلك توقفت عندها لتسأل عن علة هذا التغيير وحكمة هذه المخالفة ولماذا انفردت هذه الصفة بإعراب خاص وحدها، تماماً كما فعلت.

قال: فما هى هذه الحكمة؟ ولماذا هذا الانفراد؟

قلت: لأن هذه الصفة هى ﴿ الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ ﴾، فافردها القرآن وخصها بصيغة إعراب وحدها ليعرفك رفعة منزلتها وجليل قدرها، وأنها واسطة العقد فى هذه الصفات والمعين الذى تأخذ منه والمدد الذى تستمد منه. ألا ترى أن الصلاة هى الصفة الوحيدة التى ذكرها الله عز وجل فى سورة «المؤمنون» مرتين؛ فبدأ بها صفات المؤمنين وختمها بها: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ..... وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون ١-٩].

فهذه صفة لها شأن وقدر يجعل القرآن فى أى موضع يذكرها يفردها دون باقى الصفات ويضعها فى موضع خاص ينبه القارئ إليها ليقف عندها ويتمهل.

قال: فلذلك بدأ بها صفات المؤمنين وختم بها.

قلت: ولذلك وضعها فى عرش من الإعراب ليس لصفة غيرها لتبرز فيه وتراها وتستوقفك عنده فلا تمر عليها عينك فى غفلة عنها.

قال: إذاً فهذا الإعراب المتفرد للكلمة الذى يبدو شاذاً وسط أخواتها مقصود مراد؟

قلت: نعم! مقصود ومراد لأنها صفة خاصة فلا بد أن توضع فى صورة خاصة لتقف عندها وقفة خاصة. أرأيت كيف....

قال مقاطعاً: الأمر لم ينته بعد، فكل ما قلته لا يساوى شيئاً إذا كانت الكلمة بعرشها هذا لا وجه لها فى الإعراب والنحو.

قلت: بل إن لها وجهاً، ووجهها فى صورتها المخالفة لأخواتها هذه لأجمل وأحكم؛ لأنه وجه يتمم المعنى والحكمة من هذه المخالفة وينسجم معها، فيصبح المعنى المراد مخبوءً فى الإعراب، والإعراب هو عينه المعنى المراد، وهما معاً سر المخالفة وبيان إعجاز القرآن فى تصريفه للكلمة فى مكانها يجعلها درة متلألأة.

قال: شوقتنى!

قلت: ﴿**الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ**﴾ هنا منصوبة على الاختصاص، فيكون المعنى: وأخص المقيمين الصلاة، أو على المدح فيكون المعنى: وأمدح المقيمين الصلاة.

قال جذلاً: يا لله! وفى الحالين الإعراب يعنى أن هذه صفة خاصة متفردة خصت بالنص فى أخص، وخصت بالمعنى فى أمدح.

قلت: وخصت بموقعها المتفرد وعرشها الإعرابى الفريد بين أخواتها الذى هو الياء والنون، والذى لا يمكن أن تمر عليه دون أن تتوقف عنده.

ها! أرضى عقلك الآن؟

قال: لا. ليس بعد. ماذا عن آية المائدة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾.

﴿ الصَّابِئُونَ ﴾ هذه لماذا جاءت مرفوعة والآية تبدأ بإنَّ مخالفة إعراب ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ و﴿ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ و﴿ النَّصَارَىٰ ﴾؟

قلت: أولاً: أأنت أعلم بالعربية وصحة الإعراب وموافقة الكلام لصحيح اللسان العربى أم العرب الخُلَّص الذين نزل فيهم القرآن؟

قال وهو ينظر إلى بشك: بل العرب الخلص الذين نزل فيهم القرآن.

قلت: فإن أحداً منهم لم تواته الجرأة أن يفتح فمه ليصف كلمة قرآنية بالخطأ ومخالفة اللغة، وهى لغتهم وهم أربابها وأعلم بما يوافقها ويخالفها. ولو رأوا فى كلام القرآن لحناً لما سكتوا عليه، بل لأشاعوه وأذاعوه وجعلوه عَلَماً وراية يحاربون بها هذا الذى نزل بهم فشتت شملهم وفرق جمعهم وسفه أحلامهم وعاب آلهتهم وآباءهم. فهل سمعت عن أحد منهم قام ليقول: هلموا واسمعوا وتعجبوا من هذا الذى يعاجزنا بقرآنه وفيه من اللحن والخطأ ما فيه؟

قال: لا. ومع ذلك.....

قلت: ومع ذلك تريد أن تفهم.

قال: وهل آتيك وتأتينى إلا من أجل هذا؟!

قلت: سنحاول!

أما خطأ الإعراب فلا. وهى مرفوعة بوجه من الإعراب صحيح. فالآية تقديرها: «إن الذين آمنوا والذين هادوا - والصابئون كذلك - والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر» فهى مرفوعة على تقدير أنها مبتدأ خبره محذوف، ونظائرها فى العربية كثير.

قال: آه! هذا وجه صحيح حُلت به مشكلة الإعراب، ولكن يبقى المعنى والتفسير. فلماذا كانت ﴿ الصَّابِئُونَ ﴾ وحدها هى التى انفردت بهذا التقدير والرفع؟ ولماذا لم تكن كذلك ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أو ﴿ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ أو ﴿ النَّصَارَىٰ ﴾؟

قلت : فكر أنت وقل لى .

أطرق رأسه مفكراً ثم رفعها قائلاً : لا بد إذاً أن فى ﴿ **الصَّابِئُونَ** ﴾ شيئاً ينفردون به عن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى جعل القرآن يفردهم بإعراب خاص ليستوقف البصر وينبه العقل .

قلت : إنك لرائع .

قال : ولكن ما هو هذا الشئ الخاص وكلها فرق عقائدية ؟

قلت : ها قد وضعت يدك على مفتاح السر .

قال : مفتاح السر ؟!

قلت : نعم ! فالذين آمنوا هم المسلمون ، والذين هادوا هم اليهود ، والنصارى هم النصارى ، وكل منهم عقيدة منفصلة وملة قائمة بذاتها .

قال : والصابئون ؟!

قلت : أما الصابئون فإنهم ليسوا عقيدة قائمة بذاتها ولا ملة منفصلة ، وإنما هم فرقة صبأت ، أى خرجت عن أصل ملتها وعقيدتها وانفصلت عن أس فرقتها . وأصل ملتها اليهودية وأس فرقتها اليهود ، خرجوا عليهم وعبدوا الكواكب والنجوم يرونها قد حلت فيها الملائكة النورانية التوراتية .

قال : بابل ؟!

قلت : تماما أيها الألمعى اللوذعى . فهذه فرقة انشعبت من اليهودية فى السبى البابلى وخرجت منها وخلطت عقائدها بعقائد البابليين ، فعبدوا النجوم التى يعتقدونها الملائكة . ومن آثار أصلهم ومنبتهم اليهودى فى عقائدهم وطقوسهم إيمانهم بأنهم شعب الله المختار (بهيرى زدقا) ، واتخاذهم هيكلاً كهيكل اليهود يبنونه من الخيام والقصب ، وطرائقهم وطقوسهم فى ذبح القرابين وتقديمها للإله .

قال : فلذلك جاء بهم القرآن فى صيغة إعرابية تختلف عن الصيغة التى وضع فيها باقى الفرق لتشير إلى انفرادهم بكونهم فرعاً من اليهودية لا ملة قائمة بذاتها .

قلت: نعم. ولذلك أيضا جاء بها عقب اليهود مباشرة. فهم فرع منهم وتابع فى أصل نشأتهم لهم. فالذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا يحزنون. والصابئون - بتبعيتهم لليهود وأصل منشاهم - كذلك.

قال: إن ما قلته لبديع. ولكن أمامك حجرة عثرة، بل حجرتا عثرة.

قلت: اللهم سلم من حجارتك!

قال: إذا فلماذا جاءت ﴿ **الصَّابِئِينَ** ﴾ منصوبة ومفصولة عن اليهود فى آية البقرة: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: ٦٢]؟

ولماذا جاءت منصوبة وهى متصلة بالذين هادوا فى آية الحج ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [الحج: ١٧]؟

فإذا كان القرآن رفع ﴿ **الصَّابِئُونَ** ﴾ فى آية المائدة ووصلهم بالذين هادوا لأنهم انشعبوا منهم فهم لهم تبع، فلماذا نصبهم فى آية الحج، ونصبهم وفصلهم عن اليهود فى آية البقرة؟

هل هؤلاء «صابئون» وأولئك «صابئين» غيرهم أم ماذا؟

قلت: الصابئون فرقة يهودية انشعبت من اليهود واختلطت عقائدهم بعقائدهم البابليين. فهم فى أصلهم تابعون لليهود، ولكنهم انفصلوا عنهم وخرجوا على سلطة الكهنة والأحبار وعلى العقائد اليهودية، وهجروا المجتمع اليهودى وسلطان الكهنة الذى يحكمه وانعزلوا عنه، بل وناصبوا اليهود العداء عقائدياً، فهم يكرهون رب الجنود التوراتى (يهوه العبرى - أدونای المندائى) لأنهم يرونه رباً لليهود فقط ولا يضمر للصابئة وداً ولا يخرج منه إلا الشر ولا يحابى إلا اليهود.

ولذلك نصبهم القرآن بحكم ما صاروا إليه واستقروا عليه.

قال: فآية تصفهم من جهة أصلهم ومنشاهم، فرفعتهم تبعية لليهود، وآية تصفهم من جهة مآلهم وما انتهوا إليه، فنصبتهم بياناً لاستقلالهم عنهم.

قلت: تماماً. فآية المائدة المرفوعة تعرفك أنهم فرقة نشأت من اليهودية، وآية الحج المنصوبة تعرفك أنهم انفصلوا عن اليهودية وصاروا فرقة مستقلة أعطتهم الآية حكم الملة القائمة بذاتها.

قال: تبقى المشكلة الكبرى. هم شعبة من اليهود انفصلت عنها واستقلت بذاتها، فلماذا جاءت بهم آية البقرة مفصولين عن اليهود مخالفة آيتى المائدة والحج وهم فيهما متصلون بهم رفعاً ونصباً؟

قلت: المشكلة الكبرى هى فقط فى زاوية رؤيتك للأمر!

قال: زاوية رؤيتى! كيف؟

قلت: آية البقرة لم تفصلهم عن اليهود لكنها أدخلت بينهم وبين اليهود النصارى.

قال: وما الفرق؟

قلت: لتكمل لك آية البقرة تاريخ الصابئة وتأتيك به تاماً. فهم نشأوا من اليهودية، ثم انفصلوا عنها واختلطت عقائدهم بعقائد وطقوس البابليين، ثم استقروا فى بابل ملتقى العقائد وطريق القوافل، فأخذوا من النصارى بعض عقائدهم وطقوسهم وجعلوها جزءً من عقائدهم وطقوسهم. فمن آثار النصرانية فى الصابئة إيمانهم المطلق بالتعميد. وهو عندهم طقس يومى ولا يكون إلا فى ماء جار، ولذلك يسكنون دائما قرب الأنهار. ومما بقى من آثار اختلاطهم بالنصارى تحريم الختان والعزوف عن الزواج وتقديس يوم الأحد، وتقديس شخصية المعمدان يوحنا العبرى – يهانا المندائى. فهم قد صاروا خليطاً من كل هذا ومستقلاً عن كل هذا.

قال: فادخلت آية البقرة النصارى بينهم وبين اليهود لتشير إلى أن النصرانية صارت جزءً من تكوين عقائدهم وطقوسهم بعد انفصالهم عن.....

سكت قليلاً ثم صاح فجأة: يا الله! فكأن في الآيات الثلاث شفرة تحوى تاريخ الصابئة كله في ثناياها. فهم شعبة من اليهودية اختلطت بالبابلية الكواكبية فصارت مستقلة عنهم، ثم استمدت روافد ومؤثرات من النصرانية.

قلت: والآيات الثلاث تجمع لك تاريخ الصابئة كله من مبدئه إلى منتهاه بهذا الرفع والنصب، وهذا الوصل والفصل.

وما إن أتممت كلمتي حتى قفز من على كرسيه واقفاً. وبدا مترددا، ثم خر إلى الأرض ساجداً. وما إن اعتدل جالساً حتى ابتسمت قائلاً له: أما تريد أن تعرف كيف يقول القرآن: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ وأخطأ هي أم صواب؟

قال: بل صواب صواب!

فإنه لأهون علي بعد ما رأيت من هذا العجب العجاب أن أتهم عقلي وعقول كل البشر من أن أفكر في وجود خطأ في هذا السحر الحلال.

قلت: ولا حتى تريد أن تشبع فضولك فتعرف حلها؟

قال: أما هذه فنعم! بل إني لشديد الفضول أن أعرف تفسير لغز هذه العبارة.

قلت: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ هذه التي رأيتها خطأ ولا وجه لها في الإعراب، أتدرى كم وجه لها في الإعراب؟

قال: اثنان.

قلت مبتسماً: لا.

قال: ....ثلاثة، أربعة.

قلت: تسعة أوجه!

قال: يا للهول!! تسعة أوجه؟!

قلت: نعم فإليك هى وخذ ما شئت منها.

أولا: هذان اسم إنّ منصوب بالألف.

قال: منصوب بالألف! أتهزأ بى؟! وكيف ينصب المثنى بالألف وكل كتب النحو أمامك تقول إنه منصوب بالياء والنون؟

قلت: صبراً. أما تذكر أننا قلنا إن القرآن قد يأتى بكلمات فى لغات القبائل العربية يكاد لا يعرفها أحد غيرها.

قال: بلى أذكر.

قلت: وكذلك فإنه قد يأتى من الإعراب بوجوه غير شائعة فى جل ألسنة العرب، وإنما يكون هذا الوجه خاصا بقبيلة أو بطن من العرب، وربما لا يستخدمه ولم يسمع به أحد غيرهم.

قال ساخراً: فلغة من هذه التى تنصب المثنى بالألف؟

قلت: اسخر ما شئت. هى لغة بلحارث بن كعب وخثعم وكنانة. فهؤلاء لا ينصبون المثنى بالألف، ولكنهم يُلزمون المثنى الألف فى جميع أحواله مرفوعاً أو منصوباً أو مجروراً.

قال فى شك: هذا كلام مرسل ولا دليل عليه.

قلت: بل هاك الدليل. فشاعرهم يقول:

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

ويقول آخر:

تزود منا بين أذناه طعنةً دعنه إلى هابى التراب عقيم

أرأيت؟ ها هم ينصبون المثنى بالألف كما رأيت فى البيت الأول، ويخفضونه أيضا بالألف كما هو أمامك فى البيت الثانى. فالألف لازمة للمثنى عندهم فى كل الأحوال.

قال: سبحان الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء، فيأتى بما خفى ودق من بطون الفيافى وجوانب الوديان.

قلت: وإليك وجه ثان فى إعرابها. العرب قد تستعمل إن المشددة الثقيلة بمعنى نعم. فإذا استعملتها بمعنى نعم تصبح ملغاة لا عمل لها. وعلى ذلك لا تكون الآية بادئة بإن الحرف الناسخ الذى ينصب المبتدأ، ولكن بإن بمعنى نعم التى لا عمل لها ويكون معنى الآية: نعم هذان لساحران.

قال: لا تقف هكذا دون.....

قلت: الدليل الدليل. إليك الدليل.

سأل رجل أعرابى ابن الزبير شيئاً فلم يعطه. فقال: لعن الله ناقة حملتنى إليك. فقال: إنَّ وراكبها. أى: نعم ولعن الله راكبها.

ويقول عبد الله بن قيس الرقيات:

بكر العواذل فى الصبو ح يلمننى وألو مهنهْ

ويقلن شيب قد علا ك وقد كبرت فقلت إنَّه

أى فقلت: نعم. وهذه الهاء لضرورة الشعر وتقفية البيت.

قال: حقاً! العلم نور، فلو ظللت أفكر مع نفسى وأتأمل لأنفقت سنى عمرى كله وما عرفت من هذه الوجوه وجهاً واحداً.

قلت: وكيف تعرفها إلا من أهلها. هذه دقائق القرآن التى أسجد بها العرب وأذل أعناقهم، أفتريد أن تصل إليها أنت أو غيرك وأنت جالس فى ظلال النسيم تسمع المذياع أو التلفاز، أم تريد أن تحوزها من كتب المطالعة المدرسية؟!

قبل أن تتهم القرآن أنت أو غيرك زن عقلك أولاً فستعرف عندها مقداره. فهذا كلام لا يخوض فيه إلا من كان عصى الفهم شيمته الجهل!

قال مبتسماً: رويدك وترفق بى! أتريدنى أن أفهم أم تنفرنى لأهرب منك؟ قد رأيت أشياء وقف عقلى فيها وقصر عن إدراك مراميها فجئت أسأل وأتقصى.

ابتسمت قائلاً: لا عليك، فلم أكن أقصدك، وإنما أصابك الكلام عرضاً. فإليك الوجه الثالث.

الجملة أصلها: إنه هذان لساحران.

قال: إنه!

قلت: نعم. إنه، فهذه الهاء تسمى ضمير الشأن، والعرب قد تحذفها فى الكلام من باب البلاغة. فتكون هى مبتدأ إن والجملة بعدها من المبتدأ والخبر خبرها. فهذان مرفوعة لأنها مبتدأ.

وإليك الدليل قبل أن تطالبنى به.

يقول الأخطل التغلبى الشاعر الأموى المشهور:

إنّ من يدخل الكنيسة يوماً يلق فيها جآذراً وظباء

أما الوجه الرابع .....

رفع يده مقاطعا ثم قال: قف! قد عرفت من وجوه إعرابها ما فيه الكفاية ولو أكملت التسعة أوجه هذه التى ذكرت لتداخلت جميعها معاً وما عرفت ولا تذكرت منها شيئاً ألبتة. يكفينى ثلاثة أوجه.

قلت ضاحكاً: كما تحب!!

* * *

قال: هيا بنا ننطلق فى كلمات القرآن. فإن ما رأيته من العجائب ليشوقنى لكلماته؟ يا ترى كم من الإحكام فيها، وأىُ إعجاز يفيض من معانيها؟

قلت: إن الكلمات فى القرآن ليست ككل الكلمات.

قال: فأنا أحس عذوبتها وإحكامها، وعقلى يهفو لفهم أسرارها.

قلت: فكلمة القرآن هى – كالحرف تماماً – فى موضعها لا يصلح بدونها ولا تفى غيرها فيه بمعانيها. فإذا كانت الحروف هى لبنات القرآن وإعجازه، فالكلمات هى عمده وأركانه.

قال: فلا يمكن استبدال غيرها بها؟

قلت: إذاً لتغير المعنى وتفكك النسيج المتآلف، وذهبت روعته من نفسك واختل إحكامه فى عقلك.

قال: ولا كلمة واحدة؟

قلت: حاول وسترى كما أخبرتك من قبل أنك ستكون كالواقف أمام الفسيفساء البديعة الآسرة للنفس والعين، يتوهم من لا يعرف قدرها القدرة عليها، فينتزع لوناً ليضع لوناً ويبدل زخرفة هنا بأخرى هناك، فما ينتهى إلا وقد صار جمالها فى النفس قبحاً، وتناسقها اضطراباً، وأسرها للعين تنفيراً.

ففى القرآن كلمة تعطيك من نفسها المعنى لا يمنحه غيرها، وتبدو من دقتها كأن عبارتها ولدت بها وموتها فى فقدها، وأخرى تسكب المعنى فى نفسك بصورتها، وثالثة تجعل نفسك فى أذنك بإيقاعها. وكلها لبعض كالبنيان المرصوص: إن جاءت واحدة لتعطى النفس سروراً، جاءتك أخواتها تؤازرها؛ فمنها التى ترسم البهجة أمام عينيك، ومنها التى ترسل أنغاماً رخية فى أذنيك، ومنها التى تُطلق بالخفة والنشاط لسانك وشفتيك. وأما.....

قاطعنى قائلاً: انتظر! انتظر! لا تحشد لى وجوه إعجاز الكلمة وروعتها هكذا حشداً. فلا أريد أن يفوتنى شئ أو يمر أمامى فلا أنتبه إليه.

ثم ابتسم قائلاً: سوف أحصى ما تقول وأعده لك عداً. ولن أنتقل إلى لاحق حتى ترضى وتطمئن نفسى إلى السابق.

قلت: كما تحب. فاختر واحدة نبدأ بها.

قال: دقة كلمة القرآن فى نفسها وقيامها بالمعنى وحدها لا يفى به غيرها.

قلت: نعم. فإن كلمة القرآن دقيقة فى نفسها توحى من المعنى ما يدرس بإبدالها، ومن الإحكام ما يصير فوضى بإسقاطها. فهى موضوعة فى مكانها بميزان إلهى معجز.

قال: شوقتنى! فدع الكلام حول الكلمات وهيا بنا إليها.

قلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢].

تأمل هذه الكلمة ﴿زُرْتُمُ﴾ لتعرف دقتها. انظر! هل يمكنك مهما حاولت أن تزيلها من آيتها إلا وقد اختل إحكامها، أو تبدل غيرها بها إلا ويذهب المعنى الذى تحمله وتنكر أذنك من غيرها النغم الذى تسمعه منها؟

أطرق مفكراً فى عمق ثم قال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، فماذا لو قلنا: «حتى أتيتم المقابر»؟

قلت: إذاً لتوهم السامع رغبتهم فى ذلك وسهولته عليهم. فالإتيان هو المجئ بسهولة. وربما توهم أحد أنهم أتوا المقابر ليفتخروا بكثرة آبائهم وأجدادهم من الأموات بعد أن شبعوا تكاثراً بالأحياء.

قال: والسورة إنما جاءت لإنذار الكافرين وتوعدهم بالجحيم وفقدان النعيم إن شغلهم التكاثر بالأموال والأولاد عن الاستعداد للمقابر.

قلت: أرأيت كيف تُحرف كلمة فى غير موضعها المعنى وتحيل الاتساق فوضى.

قال: انتظر! فما زالت هناك كلمات أخرى.

ماذا لو قلنا: «حتى سكنتم المقابر»؟

قلت: لن أجيبك أنا. بل أجب أنت، فهل المقابر سكن؟ ولو كانت سكناً أفتكون سكناً للكافرين؟

قال: السكن سكينة وقرار وطمأنينة.

قلت: والسورة تتوعد وتهدد. وها أنت قد وصلت إلى المعنى الملفوف فيها لا يصل إلى عقلك ونفسك إلا بها. فقل لى: الزيارة دائمة أم عابرة؟ إلى مستقر أم إلى مكان لا بد أن تنصرف عنه؟

قال: هى عابرة ولا تسمى الزيارة زيارة إلا إلى مكان لا بد من الانصراف عنه.

قلت: تماماً. فـ ﴿ زُرْتُمُ ﴾ هو اللفظ الوحيد لا تجد غيره مهما حاولت الذى تفهم منه أن الإقامة فى المقابر عابرة وليست دائمة، وأن القبر ليس نهاية المطاف وإنما هو محط فى الطريق لا بد من الانتقال عنه إلى نهايته.

قال: فهمت. فالقرآن اختار ﴿ زُرْتُمُ ﴾ على سائر الكلمات التى تعطى معنى الذهاب إلى المقابر لينبه العقل ويثير فى النفس أن هذا الذهاب قصير مؤقت، وأن القبر ليس نهاية الدنيا وإنما هو باب عبور إلى الآخرة.

قلت: وهو ما لا يمكن أن تحس به أو يرد على عقلك إلا من ﴿ زُرْتُمُ ﴾ وحدها. وهذا ما فطن إليه الأعرابى بعقله فى أذنه وفطرته. ما إن سمع الآية حتى قال: بُعث القوم للقيامة ورب الكعبة، فإن الزائر منصرف لا مقيم.

قال: يا للدقة المتناهية! إن الكلمة فى دقتها تحمل عقيدة الإسلام فى جوفها.

قلت: نعم. فهذا هو الإعجاز؛ دقة الكلمة فى نفسها ودقتها فى مكانها من البناء القرآنى. فتأملها الآن مرة أخرى وانظر لماذا جاءت هذه الآيات؟

قال: لكى تتوعد الكافرين وتفزعهم وتنذرهم بسوء العاقبة وبئس المصير.

قلت: فلو جاءت كلمة غير ﴿ زُرْتُمُ ﴾ لكان القبر مستقراً ونهاية.

قال: ولكانت خاتمة الكافر التراب.

قلت: وهو عين ما يتمناه يوم القيامة يوم: ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ: ٤٠]

فلو كانت كلمة غير ﴿ زُرْتُمُ ﴾ لبثت فى قلوبهم الطمأنينة والمراد تخويفهم، ولجلبت إلى نفوسهم السكينة والمطلوب إفزاعهم.

قال: فلو كانت كلمة أخرى لكانت متضاربة فى إيحائها ومعناها مع الإنذار بزيارة المقابر، والتهديد المخيف: ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر: ٣-٤] والوعيد المفزع فى الجحيم والحرمان من النعيم.

قلت : وفى إيثار ﴿ زُرْتُمُ ﴾ على غيرها سر آخر.

قال : بعد عجائب الحروف أصبحت أرى الكلمة كالبلورات المتداخلة، فى كل بلورة أخرى، وفى كل بلورة سر وعجيبة.

قلت : فإن ﴿ زُرْتُمُ ﴾ تتشابه حروفاً وصوتاً ونطقاً مع زر الأزرار.

قال : زر الأزرار؟ أتعنى إدخال الزر فى عروته؟!

قلت : تماماً.

قال : وما علاقة هذا بذاك؟

قلت : العلاقة أن هذا التشابه الصوتى والجناس اللفظى يجلب للسامع والقارئ المتمعن من إشعاع المعنى وتداعى الإيحاء ما لا يمكن أن تفيض به كلمة أخرى.

قال :كيف؟ لا أفهم.

قلت : أليس زر الزرار فى عروته إدخالاً ومعالجة واحتكاكاً له بجدارها وانقباضاً لها عليه؟

قال : ياه! إن هذا معنى فى الكلمة لا يخطر على بال.

قلت : ومع ذلك إن نبهك أحد إليه، أو أعلنت لك نفسها به الحروف لا يمكنك إلا أن تراه لطيفة فى الكلمة وطريفة تزيد المعنى إحكاماً وإحاطة وجمالاً ودقة.

قال : سبحان من اختار الكلمة درة فريدة لا مثيل لها فى مكانها. مرور الجسد فى فتحة القبر إدخال ومعالجة ونفاذ فى ضيق واحتكاك بها كدخول الزر فى عروة تماماً.

قلت : وهو ضيق وضمة وخنق كخنقتها على زرها.

فكأنه بهذه الكلمة يبغت الكافر ويفزعه؛ ينقله من رحابة الأموال والأولاد إلى ضيق القبر وفتحته التى هى الباب بين البسط والقبض.

قال: إن هذا لعجب من العجب. الكلمة تعطى المعنى بنفسها يحمل العقيدة، وتثير الصورة بصوتها وحروفها تصف الحقيقة. وكل هذا يتوحد ويصب فى النفس فزعاً وتوعداً وضيقاً وهماً، فكأن الكلمة هى نفسها قبر يحيط الكافر بجدرانه ويضمه ويخنقه بإحكامه.

قلت: وعجيبة العجائب فيها أنها تعطى المعنى بنفسها وتسكبه فى النفس بإيحائها وإشعاعها، ثم تأسر الوجدان بإيقاع لحنها واتساق صوت حروفها بين أخواتها.

قال: تقصد الموسيقا التى تنبعث من تشابه راءات التكاثر وزرتم والمقابر.

قلت: ليس لتشابه الراءات وحدها. بل هناك مصدر آخر لهذه الموسيقا التى تنبعث من الآية.

قال: فهذه موسيقا داخلية فى تلاؤم الحروف لا سبيل لتحديد مصدرها.

قلت: نعم هى داخلية ويصعب تحديد مصدرها ولكنك قد تقع على ما يفسرها لك فى جزء منها، وإن لم تستطع أن تتبين عن يقين مصدرها. فالقرآن يبعث موسيقاه وألحانه من الفواصل أو من المدود أو من الجناس أو من إيقاع المقاطع وتناسقها.

والإعجاز أنه لا قواعد ثابتة. فمصدر النغم فى آية غير أختها، والإيقاع فى آية لا تجده فى أخرى. ورغم هذا الاختلاف فأذنك أسيرة له ووجدانك مسحور به.

قال: فاين دور ﴿زُرْتُمُ﴾ فى موسيقا هذه الآية؟

قلت: فاقرأها أولاً.

قال: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

قلت : فلو تأملتها لرأيت الموسيقا تنبعث فيها من تشابه مقاطع لتعطى إيقاعاً واحداً، وتجانس مقاطع أخرى لتعطيك توقيعاً آخر. وإعجاز الموسيقا فى انبعاثها من تداخل هذا الإيقاع بذاك دون أن تفطن أنت لهذا ولا ذاك.

قال : لا تسكت هكذا. فقد خلعتنى من الأرض، وما بلغت بى السماء.

قلت : الموسيقا تنبعث فى الأذن من الإيقاع الواحد فى المقاطع المتشابهة المتكررة :

التكاثـــر حتى **زرتم المقابـــر**

فهذا يكاد يكون مقطعاً واحداً يعطيك نغمة متسقة فى أول الآية ووسطها ونهايتها.

قال : ثم؟

قلت : ثم التوقيع فى المقطع الصوتى الواحد الذى يزن الآية فى طرفيها :

ألها **كُـــمْ** زر**تُـــمْ**

قال : ويتداخل هذا الإيقاع بذاك التوقيع والوزن.

قلت : فيعطيك موسيقا رخية تكاد لا تعرف مصدرها.

وزرتم التى تحتوى الإيقاعين والمقطعين معاً : «زر» و«تم»، هى المعبر الذى يسرى فيه النغم ويتآلف فيه الإيقاع هنا وهناك ليعطيك نظماً واحداً. فهى التى تمسك بدفة الإيقاع وتتعانق عندها المقاطع.

قال : يا لروعتها! إذاً فهى معبرة بين الدنيا والآخرة، ومعبرة بين سعة التكاثر وضيق القبر وضمته، ثم هى معبرة بين مقاطع النظم ماسكة لدفة الوزن.

قلت : ومكمن روعتها هو دقتها المتناهية من كل وجه، ودقة مكانها الذى هيئ لها وأعد لاستقبالها، فلا تفهمه إلا بها ولا تمنحك أنوارها إلا فيه.

قال : فذلك تفصيل الحكيم الخبير.

قلت : فإليك كلمة أخرى تبصر بها دقة القرآن المعجزة واختياره للكلمة فى

مكانها تتوله الآذن العربية فى جمالها وتناسقها، ويحار العقل أمام الميزان الذى اختارها وأحكمها.

قال: قل لى. قل لى.

قلت: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فقلِّب الآية من كل وجه وحاول أن تأتى بكلمة لتحل محل الذكر فيها، وأنا ضامن لك أنك لو حشدت عقول البشر جميعاً ومن ورائها معاجمهم فلن تجد كلمة تضعها مكانها وتعطيك مثل معناها وإيحاءها وبريقها.

قال: فالذكر هو القرآن، والقرآن نفسه يذكر فى آياته أنه القرآن وأنه الفرقان وأنه الحق؛ فتارة يستخدم هذا، وتارة هذه، وثالثة تلك.

قلت: لكنه لا يضع الكلمة فى مكانها خبط عشواء، بل إحكام وتناسق واختيار للكلمة يعجز البشر عن استيعاب دقته.

فقل لى: أسماء القرآن كثيرة كما قلت فلم تركها كلها ولم يختر منها فى هذا الموضع إلا كلمة واحدة «الذكر»؟

قال: أمهلنى قليلاً. وأخذ يهمس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ ..... ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾.

قلت: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

قال: آه! الذكر هو الطريق إلى الحفظ، والحفظ وسيلة الذكر.

قلت: أرأيت كيف تُنتقى الكلمة فتتدفق بها الحياة فى عبارتها. نعم الذكر هو وسيلة حفظ القرآن. فكأنه عز وجل اختار الذكر من بين أسماء القرآن لينبه الذين نزل إليهم أنه عز وجل تكفل بحفظه، وأن حفظه يكون بذكرهم له. فكأنه يقول لهم: كونوا دائماً ذاكرين قارئين مرتلين. فهذا سبيل حفظه.

قال: إن هذا لبديع. القرآن هو الذكر، والذكر هو وسيلة حفظه.

قلت: فماذا تقول إذا عرفت أن الذكر من معانيه الحفظ.

قال: فتلك أبدع وأجمل. فكانه يقول لهم: نزلنا إليكم القرآن محفوظاً لتحفظوه، فيكون فى حفظه ذكره، وفى ذكره حفظه.

قلت: والأبدع والأجمل أن يسمى القرآن ذكراً، فيرشدهم إلى أن حمايته وصيانته من التحريف والتبديل والتغيير إنما تكون بكونه مذكوراً بينهم محفوظاً فى الصدور: يلقيه صدر إلى لسان ليحفظه لسان فى صدر. فيظل مذكوراً وذكره لا ينقطع. وهذا هو التواتر الذى حفظ القرآن وعصمه أن يصيبه ما أصاب الكتب السابقة من تحريف وتبديل.

قال: قد قلتها، الكلمة كالبلورات المتداخلة، فى كل بلورة بلورة، وفى كل بلورة عجيبة تتوله منها الأذن ويحار العقل كما قلت أنت.

ياه! الذكر هو طريق الحفظ، والحفظ هو وسيلة الذكر، والذكر والحفظ هما ذكره فى الألسنة وحفظه فى الصدور. وهما معاً حفظه من التبديل والتحريف.

إن جمال اللفظة فى الآية لأخاذ.

قلت: والأهم أن رأيت كيف دقتها وروح الحياة التى تدفعها. فلو كانت كلمة مكان الذكر لجمدت حياة الآية وانطفأ بريقها وذهب إشعاعها وضاعت المعانى الملتفة المتعانقة كأفنان الشجر فيها.

وما انتهيت حتى نهض من مكانه وتهيأ للخروج.

قلت: ما لك قمت؟

فالتفت إلى خارجاً من الباب وهو يقول: دعنى الآن فإن عقلى مشغول جد مشغول.

* * *

قال: تأخرت على.

قلت: ما تأخرت إلا قليلاً.

قال وهو ينظر فى ساعته: لا أعرف إن كان الزمان يبطئ أم أن لهفتى وانتظارى هى التى أطالته؟

قلت: وكيف يبطئ؟! ثم ابتسمت قائلاً: أتراك انطلقت بسرعه الضوء وأنا لا أعرف؟!

قال: لو أردت الحق: لقد نزعتنى كلمات القرآن من جاذبية الأرض ودفعت بنفسى إلى سماك السماء فى طرفة عين. فإن الضوء إلى جوار فعلها وسحرها لسلحفاة.

قلت: فإنها قوة وسرعة كن فيكون.

قال: منذ تركتك وأنا أفتح الصفحات وأستخرج الكلمات واتاملها وحدها، ثم أضعها فى مكانها وأبحث عن سر وجودها والشرايين التى تصلها بأخواتها والدماء التى تتدفق بالحياة بينها، وأقيس المقاطع فى الكلمات علّى أضع يدى على الإيقاع الذى يسلب الأذن ويأسر النفس حتى لقد كدت أخشى على نفسى أن يرانى أحد فيحسبنى مخبولاً أو بى مس من جنون.

قلت: لا عليك من أحد، فلو تبعت الناس فى كل رأى لأضنوك ولصرت كجحا وولده والحمار، لن ترضيهم على أى حال.

قال متنهداً: هو ما تقول. المهم ما رأيك فى سورة يوسف؟

قلت: جميلة بديعة.

قال: أتعرف أن هذه السورة كنت دائماً أقرأها وأكررها حتى لقد كدت أحفظها حتى قبل أن يقر فى نفسى صدق القرآن وإعجازه.

إن بناءها الفنى لجميل، وحبكتها لمحكمة، وأحداثها لمثيرة، ومشاهدها خاطفة حية؛ إن وضعت عينيك ولسانك فى أولها استولت على نفسك ووجدانك فما تشعر وتعى لنفسك إلا وأنت فى آخرها.

ما بين يوسف ورؤياه، وأبيه وإخوته وغيرتهم منه، ومكيدتهم له ونجاته، وإغراء المرأة وسجنه، ثم انقلاب الأحداث بخروجه وعلوه وتمكينه وخضوع مصر كلها له وسجود إخوته وأبيه عنده. إن أحداثها لأخاذة مندفقة بالحياة.

قلت: وبالحقيقة. فذلك أحسن القصص. لكن ما الذى ذكرك بسورة يوسف الآن؟

قال: كلما قرأتها أو رددتها وقفت عند كلمة بها لا أبارحها، ولقد تأملتها طويلاً منذ تركتك ولم أصل فيها إلى ما يرضينى.

قلت: وما هى هذه الكلمة؟

قال: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف: ٢٤]

فإن كل كلمة كما تقول هى فى موضعها لا يكتمل بدونها، فهو كالدرة بها وكالزجاج الزائف من غيرها. وربما ساورت نفسى الشكوك فى كلمة أن موضعها يصلح ومعناها يتم بغير وجودها، ولم أر كلمة تقف عندها نفسى فترى أن موضعها يكون أجمل وأحكم وأليق بالكلام عن نبى فى غير وجودها إلا هذه الكلمة: ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ فلا أعرف حكمة وجودها ولا أرى جمالاً فيه، بل أفلم يكن من الأجمل والأحكم أن لا تكون موجودة فلا يشك أحد فى أنه همَّ ولا يتخذها البعض تُكأة فيصوره – عليه السلام – ثائر الشهوة ويصفه بما لا يليق بعصمة النبى كما فعل اليهود فى توراتهم.

قلت: ورغم كل ما قلت، لو لم تكن موجودة فى موضعها الذى أعده القرآن لها واختارها له لاختل إحكام القرآن الذى لا يترك فى المعنى شيئاً إلا أحاط به وأحاطه بسياج حتى لا تنقص منه ولا تزيد فيه الخيالات المريضة من عند نفسها شيئاً.

قال: لا أفهم شيئاً.

قلت: هذه هى الكلمة فى عبارتها كأنها ولدت بها، فتفقد روحها وحياتها بفقدها أو تصير مسخاً شائهاً بإبدالها. أو هى كاللبنة فى البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، تذهب روعتها لو نزعتها من بنيانها ونظرت لها ملقاة فى عرض الطريق.

قال: كيف؟

قلت: أولاً: إن القرآن قال: ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾ وأنت تعلم أن «لو» هذه حرف امتناع لامتناع، فـ ﴿ **لَوْلَا** ﴾ أن رأى ما أراه ربه من برهان لـ ﴿ **هَمَّ بِهَا** ﴾.

فها أنت ترى أن القرآن عصم يوسف عليه السلام من الزلل وجموح الشهوة والميل إلى الفاحشة بـ ﴿ **لَوْلَا** ﴾.

أما أن كاتب اليهود ذا الخيال المريض أفاض فى وصف شهوة يوسف عليه السلام فهذا من نقصه. وهو شهادة عجز للتوراة المكذوبة وإعجاز للقرآن الصادق.

قال: إذاً فـ ﴿ **لَوْلَا** ﴾ هنا سياج يعصم العقل أن يذهب فيما وراء الهم، ومانع يحجز النفس أن تعتريها الوساوس فى عصمة نبى الله يوسف عليه السلام.

قلت: تماماً. فـ ﴿ **لَوْلَا** ﴾ هى السياج والحاجز بين يوسف عليه السلام وظن السوء أن يفعله.

قال: هذا بديع. فكان ﴿ **لَوْلَا** ﴾ سور محكم أو هى العاصم لعصمة يوسف.

ومع ذلك فهذا لا يرضينى أيضا. فـ ﴿ **لَوْلَا** ﴾ سياج لعصمة يوسف من ﴿ **هَمَّ بِهَا** ﴾، فلماذا كل هذا العنت وهذه المشقة؛ تأتى الآية بـ ﴿ **هَمَّ بِهَا** ﴾ ثم تأتى لها بسياج وسور حتى لايتعداه أحد.

أفلم يكن الأولى أن لا تأتى ﴿ **هَمَّ بِهَا** ﴾ ابتداءً، فلا تحتاج إلى سور ولا سياج ونكون فى غنى عن الحاجز؟

قلت: فذلك تفصيل الحكيم الخبير الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة.

انظر وتأمل: أى إغراء هذا الذى امتُحن به يوسف عليه السلام من امرأة العزيز؟

قال: وأى إغراء؟! وهل بعد هذا إغراء؟ وهو شاب فتى قوى فى أوج فحولته، وهى سيدته ومالكته، ثم هى تدعوه وتتدلل أمامه وتتثنى وتتكسر أمامه كرودان الإبل واختيالها، ثم تهم به وتلقى نفسها عليه.

قلت: والموضع خال وقصر العزيز مرتع فساد، تعرف ذلك من النسوة فيه لا يستحين من إظهار شبقهن، والعزيز ربه ديوث يرى ما يرى ويعرف ما يعرف فيكون أقصى ما يفعله أن يقول لها فى لين وخنوثة: ﴿**اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ**﴾ [يوسف: ٢٩]

فلو أن رجلاً بشراً فى مثل هذا الجو الفاسد وهذا الإغراء والإغواء الصريح ما تراه يفعل؟

قال: إن هذا لموقف عصيب، ولو أن أحداً مكان يوسف لثارت شهوته وهاجت غريزته فما يشعر بنفسه إلا وهو حيث هو.

قلت: فلو كان أحد فى هذا الموضع ولم يتحرك؟

قال: لما كان بشراً.

قلت: أو أنه بشر عاجز.

قال: آه! ﴿**هَمَّ بِهَا**﴾.

قلت: نعم ﴿**هَمَّ بِهَا**﴾ هم البشر.

أرأيت إلى إحكام القرآن وإعجازه؟ جاءك بـ ﴿**هَمَّ بِهَا**﴾ ليثبت ليوسف عليه السلام البشرية، ويثبت له الفحولة والرجولة وينزهه عن العجز أو فقدان الرجولة، ثم أتى لك بـ ﴿**لَوْلَا**﴾ ليحجزك ان تتعدى الهم.

قال: آمنت بالله. فبـ ﴿**هَمَّ بِهَا**﴾ يوسف بشر رجل. وبـ ﴿**لَوْلَا**﴾ هو بشر رجل معصوم.

قلت: فإذا أدرت الجوهرة قليلاً لرأيت منها بريقاً أخاذاً آخر.

قال: فأرنيه.

قلت: فى جو الإغراء الصريح والفساد المتفشى هذا، لو لم يذكر القرآن ﴿هَمَّ بِهَا﴾ لما كانت ﴿لَوْلا﴾ لها فائدة كما قلت أنت ولما جاءت فى مكانها.

قال: نعم.

قلت: فلو لم تأت ﴿هَمَّ بِهَا﴾ لتولد من رحمها ﴿لَوْلا﴾ وتقطرها وراءها فتريك عصمة يوسف عليه السلام، لتوهم مرضى النفوس ككاتب التوراة أن هذا إغضاء عن فاحشة فعلها لا عصمة عُصم بها، ولترك عقلك يذهب كل مذهب فيما عسى أن يكون يوسف قد فعل فى هذا الموقف العصيب.

فقد ينزهه منزه، وقد يشك شاك، وقد يتهمه بالاستجابة مريض فى نفسه وعقله. وفى كل الأحوال لا تستطيع أن تنفى ولا أن تثبت.

فلو قلبت الآية من جميع وجوهها، ونزعت ووضعت ما شئت، لما وجدت لها نظماً وإحكاماً تثبت فيه ليوسف بشريته، ورجولته وفحولته، وعصمته ونبوته إلا بهذه الكلمات الثلاث: ﴿هَمَّ بِهَا لَوْلا﴾.

قال: ثلاث كلمات فقط تحتوى كل هذا. البشرية، والفحولة والرجولة، والنبوة والعصمة؟

قلت: وإن شئت الدقة فهى كلمة واحدة بسياجها.

ألم أقل لك: هذه هى الكلمة فى عبارتها كأنها ولدت بها.

قال هامساً: الكلمة فى عبارتها كأنها ولدت بها.

ثم التفت إلى قائلاً: فهناك عبارة واحدة فى القرآن هى هى فى كل كلماتها ما عدا كلمة واحدة جاءت فى الأولى غير الثانية.

قلت مبتسماً: ها أنت تلاحقنى: من كلمة ترى جمال المعنى وكماله بحذفها، إلى العبارة الواحدة هى هى تختلف فيها كلمة واحدة. فكن شاهداً على نفسك، أنك أنت الذى لا تترك لى فرصة للاختيار وتمطرنى بكلماتك وتأملاتك حتى لا تجد علىَّ بعد ذلك.

قال: تريد الهرب؟!

قلت: وهل هربت من قبل حتى أهرب منك الآن؟

فأين هى هذه الكلمة التى حيرتك؟

قال: فى سورة الحج: ﴿ **وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ﴾ [الحج: ٥] وفى سورة فصلت: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ﴾ [فصلت: ٣٩].

فكما ترى هذه جملة واحدة هى هى وتكاد تتطابق فى كل كلماتها، ومع ذلك ففى الأولى الأرض ﴿ **هَامِدَةً** ﴾ وفى الثانية ﴿ **خَاشِعَةً** ﴾.

قلت: وماذا تريد؟

قال: ماذا أريد؟ وهل هذا سؤال؟ لقد حاولت أن أعرف سبب هذا الاختلاف وعلة وضع كلمة هنا وأخرى هناك؟

قلت: وإلام وصلت؟

قال: لم أصل إلى شئ. وقلت فى نفسى: ربما كان ذلك للتنويع ونفى الملل والتكرار و...

قلت: عدت لتحرن من جديد.

قال: وتتهمنى بأنى قليل الصبر!

قلت: ها قد سكت يا كثير الصبر فقل ما تشاء.

قال: قلت فى نفسى: ربما كان هذا الاختلاف للتنويع ونفى الملل ثم تذكرت ﴿ **إِلَيْنَا** ﴾ و﴿ **عَلَيْنَا** ﴾ فقلت: لابد أن فى الأمر سراً.

قلت: ألم تقل لى إنك تكتب ما نقول ثم تعود لتأمله على مهل؟

قال: بلى.

قلت: فلو تأملت ما كتبت عن ﴿ **إِلَيْنَا** ﴾ و﴿ **عَلَيْنَا** ﴾ وفعلت مثل ما فعلناه عندها لوصلت إلى سر هذا الاختلاف ولشهدت للقرآن بالإعجاز وإحكام اللفظ داخل عبارته تقصر عنه عقول كل البشر.

قال: ما فعلناه؟!

قلت: نعم! فلو أنك بدلاً من أن تقتطع الكلمة وتعزلها عن أخواتها نظرت إليها فى الآية كلها لما احتجت إلى السؤال.

قال: فالآية الأولى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [الحج: ٥].

قلت: فالمراد فى الآية إثبات قدرة الله عز وجل على البعث بإظهار قدرته على إخراج الحى من الميت.

قال: أرى ذلك فى خلق الناس من تراب يصيرون بقدرة الله حياة نابضة.

قلت: ولذلك جاء بأطوار حياة الإنسان متتابعة مليئة بالحيوية والتغير: الإخصاب وحياة الرحم، فالطفولة، فشدة الشباب ويفوعته، فانحناء الشيب وشيخوخته فى مشاهد بصرية خاطفة حية كأنها عرض موجز لسيرة الإنسان، لينبه عقلك ويسكب فى نفسك أن هذه الحياة والحيوية إنما خلقت من تراب وبُثت فيها الحياة بقدرة خالقها، فلا يعجز عن إعادتها وهو أهون عليه.

قال: حقاً إن هذه المشاهد البصرية المتتابعة سريعة متدفقة بالحياة حتى لتسبق فى انتقالاتها الخاطفة البصر فى متابعتها والخيال فى تصورها.

قلت: لتجسد صورة الحياة أمام عينيك وتعطيك إحساساً بحيويتها فى نفسك بعد أن أعطتك معنى الحياة بألفاظها.

قال: ولكن لم أصل بعدُ إلى سر الأرض الهامدة.

قلت: الهامدة هى الميتة لا حياة فيها، الساكنة لا حركة فيها، اليابسة لا نبت فيها.

قال: الميتة؟!

قلت: ولذلك جاءت الأرض فى الآية ﴿ هَامِدَةً ﴾، لتكون شاهدة بحياتها بعد همودها على قدرة الله عز وجل كما شهدت عليها رحلة حياة الإنسان منطلقة من التراب بكن.

قال: فهى ﴿ هَامِدَةً ﴾ كالتراب!

قلت: فإذا نزل عليها الماء بأمر الله سرت فيها الحياة بعد الموت، واهتزت بالروح بعد سكون وربت فانتفخت.

قال: فتكون حياتها وحركتها بعد الموت والهمود شاهداً على قدرة الله على البعث.

قلت: تماماً كما كانت حياة الإنسان دليلاً عليه.

قال: ولذلك قال القرآن: ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ لأن النبت هو حياة الأرض.

قلت: وفوق ذلك لأن النبت هو طفل الأرض تحمله فى رحمها فتنتفخ به كما أن الطفل هو نبت الإنسان.

قال: إنه لتناسق رائع الصورة تشف النفس انتشاء بلذته:

الإنسان حياة من موت.

والأرض حياة بعد موت.

الطفل نبت الإنسان.

والنبت طفل الأرض.

الطفل جنين فى رحم الأم.

والنبت جنين فى رحم الأرض.

هذا يأتى من ماء الرجل.

وذاك يخرج بماء السماء.

قلت: وهذا وذاك يشهد بحياته من موت لله عز وجل بالقدرة. ولذلك جاءت الآية التالية عنوان هذه الشهادة: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [الحج: ٦].

أرأيت كيف يأتي القرآن بالكلمة في مكانها فتكون كالدرة الفريدة لا نظير لها؟

قال: لا أريد أن تشغلني هذه الروعة عن الآية الثانية التي جاءت فيها الأرض ﴿ **خَاشِعَةً** ﴾.

قلت: فاقرأها كاملة لا اقتطاعاً كما فعلت.

قال: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ﴾ [فصلت: ٣٩].

قلت: فارجع إلى الوراء قليلاً وأقرأ الآيتين قبلها.

قال وهو يفتح المصحف: فصلت. فصلت ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ** ﴾ [فصلت: ٣٧ – ٣٨].

قلت: فهذه الآيات جاءت لتأمر الإنسان بالسجود لله وعبادته وحده.

قال: فهذه واضحة صريحة: ﴿ **وَاسْجُدُوا لِلَّهِ** ﴾.

قلت: فهي تقول للإنسان: كل ما في الكون يسجد لله ويسبح بحمده ويشهد له. فالليل والنهار آيتان تشهدان في تعاقبهما وديمومتهما، لا الليل سابق النهار بيد القدرة الخالقة التي أوجدتهما. والشمس والقمر يسيران بأمر الله في نظام محكم دقيق، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر لتشير إلى حكمة الخالق الذي أجراها.

قال: فلماذا كانت الأرض ﴿ خَاشِعَةً ﴾؟

قلت: جاءت ﴿ خَاشِعَةً ﴾ لتكون ساجدة انصياعاً لأمر الملك، وترفع ضراعتها أمام خالقها، وتعلن تذللها وافتقارها إليه وخضوعها وانكسارها أمام جلاله، وتُشهد خالقها على مفارقتها لمن أبى السجود وانضمامها إلى صف الذين عنده عز وجل يسبحون بالليل والنهار وهم لا يسئمون.

قال: ويالها من شهادة!

قلت: فالأرض هنا ﴿ خَاشِعَةً ﴾ ساجدة عابدة ضارعة وليست هامدة ساكنة.

قال: وهل فى طاقتها أن تكون هامدة فى الحضرة الإلهية؟ لو جاءت هامدة لا تظهر طاعة ولا تذللاً وضراعة لكانت عاصية آبقة.

قلت: ولكانت نشازاً نافرة فى هذا الجو المفعم بالسجود والضراعة والتسبيح، الكون بكل ما فيه والملكوت الأعلى وما فيه فى تسبيح وضراعة وخشوع إلا هى.

قال: فلماذا لم تأت فيها ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾؟

قلت: لأنها لم تكن ميتة فأحيتها القدرة الإلهية لكى تعطيك عنوان هذه الحياة فى النبت، بل كانت حية خاشعة عابدة.

قال: فأنزل الله عليها الماء؟!

قلت: بل قل أثابها الله على سجودها وخشوعها بالماء، فاهتزت شكراً وربت إظهاراً لنعمة الله عليها فى وجل أن تجاوز حد الشكر إلى الفخر فى حضرة الجليل.

قال: فلم تنبت فى هذه الآية حتى لا تجاوز إظهار فضل المنعم إلى إظهار فضل نفسها. إن هذا الانسجام والنظام الدقيق - لكما قلت أنت - كالفسيفساء المتناظرة الأجزاء المتناسقة التركيب المتجانسة الوحدات، لا تعرف حداً لروعتها ولا تنسيقاً أبدع لها مما أخرجته فيه يد مبدعها.

قلت : فلو جاءت الأرض هامدة ساكنة هنا لكانت عاصية آبقة، ولو جاءت خاشعة حية هناك لما بانت لك عظمة القدرة الإلهية فى بعث الحياة من الموت .

ولو جاءت هنا كهناك لكان بيان القرآن كبيان البشر، ولما أُلقى العرب أمام القرآن سجداً .

* * *

قلت : أين كنت؟ ظننتك اكتفيت!

قال : اكتفيت؟! لو استطعت لأمسكت القرآن كلمة كلمة وحرفاً حرفاً وما تركت كلمة إلى كلمة حتى أعرف سرها، ولا حرفاً إلى حرف حتى أكشف المخبوء فيه .

قلت : لا تحاول . فذلك فوق الطاقة . ولو فعلت لاحتجت عمرك كله وما انتهيت ولا قاربت على النهاية ولا حتى جاوزت البداية .

ولو وقفت عند كل حرف وكلمة وظننت فى نفسك كشف كل ما فيه وبوحه بأسراره ثم تركته وعدت إليه لوجدت منه غير الذى كان وفوق الذى بان، فهذه هى المعجزة المتفجرة بالإعجاز .

قال : فلا أقل من أن أقف عند بعض كلماته أتأملها وأتحسسها علها تفتح لى بعض أبوابها .

قلت : فأنت فى حاجة إلى أن تستجمع نفسك وتشحذ عقلك وترهف ميزانك حتى ترى ميزان الذهب والدر إلى جواره ثقيل ثقيل .

قال : ومن قال لك إنى لا أفعل؟

قلت : آه! فهذا الذى غيبك عنى .

قال : كنت أراجع وظائف الأعضاء وكيمياء الأحياء .

قلت باستغراب : وظائف الأعضاء وكيمياء الأحياء؟!

قال : نعم .

قلت: وهل ستطبق قوانين الأعضاء ومعادلات الكيمياء على القرآن؟!

قال مبتسماً: وهل يُفهم القرآن إلا بمعادلات الكيمياء وقانون الحياة؟

قلت: أنتويت مبارزتى بالألغاز؟

قال: دعنى أقتص منك ولو قليلاً. فقد أشبعتنى بالألغاز.

قلت: فلا تحيرنى.

قال: الأمر بسيط. إن هذا التناسق الخارق لكلمات القرآن فى أماكنها والميزان يفوق التصور فى دقته والذى وضعها على نسب بالغة اللطف ومع ذلك هائلة الفرق حيرنى وأذهلنى. ولا أكتمك أنى أحس أحياناً وأنا أتأمل هذه الفروق بعجزى عن استيعابها مع رؤيتى لها، حتى ليكاد عقلي يصاب بالشلل وهو ينظر أى قدرة هذه التى أنزلت الكلمات أماكنها.

قلت: إنها القدرة والمعجزة الإلهية.

قال: نعم القدرة الإلهية. فلم أستطع استيعاب معنى هذه المعجزة المؤلفة هذا التاليف المتجانس المتناسق المحكم إلا برؤية يد القدرة الإلهية.

قلت: فأين رأيتها وكيف استوعبت بها؟

قال: فى كيمياء الحياة: عناصر كحروف القرآن وكلماته، لو فرقت بينها كانت مواتاً لا حياة فيها، ولو مزجتها على غير نسبها الدقيقة التى مزجتها بها يد القدرة الإلهية ما زدت على أن جمعت موتاً إلى موت، ولو جئت إليها فى حياتها فزدت أو نقصت ولو مثقال حبة من خردل لأمتها. فلا حياة بها ولها إلا كما هى بترتيبها ونسبها وميزانها ودقة مزجها. ومن وراء ذلك سر الحياة عند خالقها.

قلت: فترى القرآن مؤلفاً بدقة هى دقة توليف العناصر تنبعث الحياة بها وتغيض باختلالها؟

قال: بل أراه ممزوجاً مزجاً من كلماته وحروفه. لالبنات ولا وحدات، بل

مزيج واحد انصهرت فيه الكلمات فذابت فى بعضها وصارت شيئاً واحداً هو الحياة والحياة فيه كما هو، إن انتزع منه شئ فقل: اختل وفقد الدقة وتغير المعنى وذهبت الروعة، ولكن قبل كل هذا قل: فقد الحياة وسر الحياة.

قلت: لم أكن أعلم أنك تخفى وراء عنادك كل هذا الصفاء وهذه العذوبة.

ثم ابتسمت قائلاً: أكنت تقرأ فى كيمياء الحياة أم درجت على طريق السالكين؟

وقال: وهل يبحث السالكون إلا عن شهود الحق ومعاينة السر؟ وفى كيمياء الحياة الحق، وفى معادلاتها ودقة أرقامها ينكشف السر.

ثم ابتسم قائلاً: هيه! ماذا عندك اليوم؟

قلت: لقد أنستنى كيمياؤك ما كنت أنتوى الحديث معك فيه وأراه يوم الروح فلا مكان فيه للتأمل.

قال: وهل تصفو الروح وتشف إلا بالتأمل؟ وهل شئ يصعدها من الأرض لتسبح فى الملكوت الأعلى إلا رؤية المعجزة وإزاحة الغبار من أمام العين لتعاينها النفس كفاحاً.

قلت: غلبتنى!

قال: الكلمة دقيقة فى نفسها، والكلمة محكمة فى مكانها كأن عبارتها ولدت بها. ما زال هناك الكثير. الكلمة تعطى المعنى بصوتها وتجعل نفسك فى أذنك بإيقاعها.

ثم ابتسم قائلاً: ألم أقل لك إنى سوف أحصى ما تقول وأعده لك عداً؟

ابتسمت له قائلاً: وأنا اتخذت لذلك أهبتى.

فقل لى: ما غاية الكلمة؟ أى كلمة؟

قال: أن تعطى المعنى، وبقدر وفاءها بالمعنى يكون كمالها.

قلت: فهذه درجة.

قال: أن تجعلك تحس بالمعنى فى نفسك. فبقدر قدرتها على أن تجعلك تحس بالمعنى فى نفسك تكون بلاغتها.

قلت: وهذه درجة ثانية.

قال: فان تجعلك تنفعل بالمعنى الذى أحسسته بها. فبقدر انفعالك لها يكون سرها.

قلت: وهذه درجة ثالثة.

قال: وهل بقيت بعد ذلك مرتبة للكلمة؟!

قلت: أن تجمع ذلك كله. فتعطيك المعنى كاملاً، وتجعلك تحس به وتنفعل له وتعيش فيه، ثم تأسر نفسك حتى لكأنك جندى تحت إمرتها، وفى هذا يكون إعجازها.

قال: فاين مثل هذه الكلمة؟

قلت: وهل توجد إلا فى القرآن يُنزِل الكلمة المنزل اللائق بها، فلو كانت فى كلام غيره لوضعت حيث لا يعلم أحد سرها.

قال: أعرف أنها فى القرآن، فاين هى؟

قلت: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩].

هذا هو عذاب عاد قوم هود، فتأمل ﴿صَرْصَرًا﴾ هذه. أتدرى ما معناها؟

قال: الباردة العنيفة العاصفة الشديدة الصوت.

قلت: فهذا كمال المعنى، مهما حاولت وقلبت فى المعاجم لن تجد كلمة أخرى تعطيك كل هذه المعانى مجتمعة متوحدة إلا ﴿صَرْصَرًا﴾ التى جاء بها القرآن.

قال: هذه هى دقة الكلمة تحيط بالمعنى من كل جوانبه. فهذه ريح عذاب جمع الله فيها البرودة والعنف والشدة والعتو والصوت القاصف، لا يصمد أمامها شئ حتى لتقتلع الرؤوس من أجسادها.

قلت: نعم فتتركهم كانهم أعجاز نخل منقعر .

وإعجازها أنها تعطيك المعنى كاملاً ثم لا توجد كلمة غيرها تمنحك الإحساس بهذا المعنى .

قال: كيف ؟

قلت: بصوتها .

فانظر إلى هذه الصاد المتكررة فى الكلمة فى مقاطع قصيرة متعاقبة ﴿صَرْصَراً﴾، واقرأها كما يجب أن تقرأ، وأخرجها من مكانها الصحيح فتعلم لماذا أتى بها القرآن على ندرة استخدام العرب لها، ولماذا لم يكتف بـ «صر» واحدة وهى كافية لتعطى معانى البرودة والشدة والصوت العاصف .

قال: صر صر صر صر . ص ص ص ....

قلت: فهذا الصفير هو سر إعجازها فى مكانها ومجئ القرآن بها تنقلك به من سكون بيتك إلى مسرح الأحداث العاصفة فى الصحراء، يصل أذنك صفيرها المتقطع فى الصاد تلو الصاد كصفير الريح، فتجعلك تسمع صوت الريح يمرق إلى جوار أذنك فتحس الريح فى نفسك وقد علم معناها عقلك .

قال: يالها من كلمة! إنها فعلا تعطى صفة الريح ووصفها بمعناها، وتعاقب الريح واستمرارها بتكرار مقاطعها، وتعطى صوت الريح بصوتها، فكان موسيقى تصويرية فى صفير صاداتها .

قلت: فصوتها وحده كاف ليدلك أى ريح كانت هذه ويجعلك تعيش أحداثها . أما لو تركت الصاد إلى الراء، لرأيت الكلمة بعد أن دلتك على صفة الريح بمعناها وأسمعتك صفيرها بصوتها وأرتك استمرارها وإحاطتها بالكافرين بتعاقب مقاطعها، بعثت لك الهواء يتجمع في صفير الصاد ليندفع من الفم ريحاً، فلو وضعت أمام فمك شمعة لأطاحت بشعلتها الريح المنطلقة منه كما أطاحت الريح برؤوس قوم عاد .

قال: معنى الريح وصوتها وأثرها، إنه عرض حى. كان القارئ وهو يقرأ فى ساحة الصحراء يحاول الهرب من هذه الريح الصرصر، وهو إن تركها حاصره صوتها واندفاعها.

قلت: فإذا توهم تفلته منها وحاول الابتعاد بأذنه عن هذا الصفير المدوى، جاءته زخات متوالية من الريح وصفيرها والهواء المندفع فيها فى السين الشديدة الوقع الحاسمة الجازمة فى ﴿نَحْسٍ﴾ و﴿مُسْتَمِرٍّ﴾.

قال: فيجد صفير الريح يحاصر أذنه من كل جهة، فيوقن أن لا مهرب منها فهى القاضية.

قلت: أرايت كيف تكون الكلمة ذات مؤثرات صوتية خاصة، تحشد نفسك فى صوتها حتى تصير أذنك هى نفسك ونفسك جندياً يأتمر بأمرها، ينفعل لها ويسير فى ركابها.

قال: مؤثرات خاصة! وأى مؤثرات؟!

قلت: وإعجاز هذه المؤثرات فى القرآن أنه يضعها لك فى مكانها، فتطابق المؤثرات الصوتية المعنى الذى يريد لك أن تعرفه وتحسه وتنفعل به. فلا يغنى عنها فى مكانها شئ، ولا تعطيك هى فى موضع كالذى تمنحه وهى فى موضعها من القرآن.

قال: إنها تحتاج إلى تقنية صوتية عالية وموسيقى تصويرية فذة تصاحب المعانى وحركة النفس معها حتى يمكن أن تحل محل هذه المؤثرات القرآنية الخاصة.

قلت: وحتى لو أمكنك الوصول إلى هذه الدرجة الرفيعة من التقنية الصوتية بالآلات، فإنها حينئذ ستكون منفصلة عن المعنى، فتعطى نفسك الأثر ويفقد عقلك المعنى خلفه.

أما القرآن فإنه يدمج المعنى وأثره فى لفظة واحدة تقوم فى مكانها مقام كل ما ذكرت.

قال وهو ينهض من مكانه: هذا بديع!

قلت: أما تريد أن ترى الكلمة فى القرآن تعطيك المعنى بصورتها.

ألقى نفسه فى مكانه ثم قال مبتسماً: أخيراً انفكت عقدة لسانك من تلقاء نفسها.

قلت: فإن القرآن كما يعطيك مؤثراته الخاصة صوتية فى مقام لا يجعلك تحس المعنى وتعيش الحدث وتنفعل به إلا الصوت، فإنه يأتيك فى مقام آخر بمؤثراته الخاصة بصرية فى كلمة واحدة تمنحك المعنى بصورتها والحركة المطوية فيها، فتنقلك إلى مكان الحدث أو تنقله إليك وتجعل نفسك وعقلك ووجدانك كلها فى عينيك تتابعه فيها.

فانظر إلى قوله تعالى عن يونس عليه السلام ﴿ **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ** ﴾ [الصافات: ١٤٢]

أتعرف ما التقمه؟

قال: ابتلعه.

قلت: لا.

قال: أكله.

قلت: وهذه أيضاً لا.

قال: فماذا تكون؟

قلت: فهذا هو القرآن، لا يأتى بالكلمة أى كلمة ليعطى بها معنى والسلام، بل يأتيك بالكلمة هى الحدث. فإن ﴿ **الْتَقَمَهُ** ﴾ هذه معناها أن الحوت أخذ يونس عليه السلام بملء فيه، فكان يونس لقمة ملأت فم الحوت.

قال: فاللقمة من اللقم؟

قلت: واللقم هو حركة الفم لالتقاط اللقمة.

قال: فلماذا قال القرآن ﴿ **فَالْتَقَمَهُ** ﴾؟

قلت: لأن القرآن يريد أن يضعك فى قلب هذا المشهد، فاختار لك فيه «اللقطة» المشحونة بالحركة، المملوءة بالتوتر والإثارة، لحظة الترقب والخطر عند انتقال يونس عليه السلام من سعة البحر إلى ضيق فم الحوت.

فاختار ﴿ الْتَقَمَهُ ﴾ دون سائر الكلمات ليريك لحظة دخول يونس عليه السلام فى فم الحوت وتحرك عضلات فم الحوت وانفتاح فكه ثم انطباقه على يونس عليه السلام.

قال: فكأنه يعرض فى كلمة واحدة مشهداً حياً مليئاً بالحركة والانفعال، ويجعل المرء وهو يقرأ يتوتر ويتحفز وهو يرى أمام عينيه الحوت وهو يقترب من يونس عليه السلام ثم يفتح فمه ليكون يونس لقمة فيه ثم ينطبق عليه.

قلت: فربما قلت فى نفسك: ربما وردت هذه الكلمة وهذا التعبير على ذهن البشر فى هذا الحدث أو غيره.

قال: ربما!

قلت: أتريد أن تعرف إذن الفرق بين التعبير الإلهى وتعبير البشر فى نفس المعنى وذات الحدث؟ لمعت عيناه بالبريق وهو يقول: كيف؟

قلت: فاقرأ آخر جملة فى الإصحاح الأول من سفر يونان. التقط التوراة وراح يقلب فيها وهو يقول: لنر. يونان... يونان.

«وأما الرب فأعد حوتاً عظيماً ليبتلع يونان فكان يونان فى جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال».

قلت: فها أنت ترى أنه لا يحدثك عن الحدث نفسه ولا يصفه لك، بل يصف لك ما أعده الرب ليونان. فتفهم ضمناً ابتلاع الحوت له ولا تحسه ولا تراه، فأنت قد فهمت لكنك لا ترى المشهد لأنه لايوجد مشهد، ونفسك خارج الحدث لأنه لا حدث.

قال: هنا صحيح فإنه لا يصف الحدث نفسه.

قلت: وحين أراد جاءك منه «ليبتلع»، فأنت فى مكانك، لأن يونس قد استقر فى بطن الحوت كما فهمت ضمناً وانتهى الأمر.

وإذاً فقد فاتتك «اللقطة» المثيرة والمشهد المتدفق بالحركة. فتفهم أن يونس فى بطن الحوت، ولكنك لا تحس المعنى فى نفسك، ولا تراه أمامك، ولا تشعر بالخطر يتهددك وكأنك مع يونس عليه السلام فى صراعه للأمواج تدفعه إلى فم الحوت يندفع إليه مفتوحا ليلقمه.

ها! ما رأيك فى هذه المؤثرات البصرية القرآنية التى تنطبق على معناها فتفهم المعنى بعقلك وترى الحدث ببصرك وتكون فيه بنفسك.

قال: وأى رأى؟!

لو أراد أحد أن يحاكى هذه اللقطة القرآنية فى كلمة واحدة، لاحتاج إلى آلات تصوير متعددة ومن زوايا مختلفة تقتنص فم الحوت لحظة انفتاحه وانطباقه على يونس عليه السلام. ومن ورائها مصور محترف ومخرج قدير.

قلت: أما مالا يستطيعه بشر فهو أن يجعلك تشارك فى هذا الحدث المثير وهذه الحركة المائجة بنفسك كما تجعلك ﴿ **الْتَقَمَهُ** ﴾.

قال: كيف؟

قلت: فلو نطقتها وتأملتها لرأيت عضلات الفم تتحرك لينفتح فى أولها حتى تصل الشفتان إلى أقصى اتساعهما فى القاف، فكأن فمك يشارك فم الحوت انفتاحه واتساعه، ثم يعود لتنغلق الشفتان وينطبق الفم فى الميم. وما بين انفتاح الفم وانطباقه دخول يونس عليه السلام فيه. فكأن القرآن ينقل صورة الحدث من فم الحوت إلى فمك.

قال: فهى تعطى المعنى وتجسده مشهداً حياً أمام العين، وتغمس المرء فيه مشاركاً فى أحداثه بحركة فمه يعيش بها حركة فم الحوت.

قلت: فأى آلات تصوير ومصور هذا الذى يجعلك ترى الحدث وتكون

جزءاً منه مشاركاً فيه؟ وأى مخرج فى طاقته أن يدمج لك المعنى وصورته فى كلمة واحدة؟

قال: تعرف! كنت أعجب دائماً كيف أن رجلاً حديداً عنيداً جباراً كأبى جهل يفعل أفعال الصبية فيتسلل فى جوف الليل ويكمن فى القر يتسمع القرآن.

قلت: فهل ما زلت تعجب منه؟

قال: بل أراه محقاً كل الحق وله العذر فى تولهه وتدلهه. وإنما أعجب لمن لم يفعل ذلك. فإن هذا لهو السحر الحلال. سحر... وأى سحر؟!

* * *

قال مقبلاً علىَّ: إن هذا حقاً لأمر عجيب!

قلت: وما هو العجيب؟

قال: ﴿الْتَقَمَهُ﴾ هذه. مازلت أتفكر فيها، وصورة الحوت تخايل عينى وفمه ينفتح وينطبق على يونس عليه السلام.

إنها «لقطة» نادرة!

قلت: فالقرآن أتى لك بها فى كلمة واحدة وجعلك لا ترى بها الحدث فقط بل تشارك فيه.

قال: والأعجب هذا الصفير الذى يضع المرء فى قلب الريح العاصفة تصفر فى أذنيه.

قلت: لا عجب مع القرآن، فأنت فيه مع العليم الخبير لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

قال: تعرف! ساورنى الشك فى أن هذا الصفير المتوالى فى السينات مع الصادات تتدافع منه زخات الريح ربما كان مصادفة فى هذه الآية.

قلت: ليس فى القرآن مصادفات، بل إحكام وتفصيل من لدن حكيم خبير.

قال: ذلك ما ساورنى حتى أخرجت الآيات التى تصف هذه الريح المهلكة العاتية فأيقنت بإعجاز القرآن يضع هذه المؤثرات الصوتية مقصودة فى مكانها.

قلت: فماذا وجدت؟

قال: ما وجدت من آية تصف الهلاك فى ريح عاد وأثرها فيهم إلا وفيها هذا الصفير المتقطع المتتابع وهذه الزخات المتوالية من القصف.

ففى آية فصلت: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦].

وفى آية القمر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩].

وفى آية الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦ - ٧].

تتغير الكلمات ما تتغير وتبقى الصادات والسينات المتدافعة المتعاقبة وصفيرها وريحها.

قلت: إذا فقد تيقنت أن القرآن يضع لك الألفاظ تصف الأحداث وتضعك فيها.

قال: إن هذا الإمتاع والدقة ومطابقة الكلمة للحدث تجعلنى لا أدرى حقاً القرآن يضع الكلمات ليصف الأحداث بمعانيها وأصواتها وصورها أم أن هذه الأحداث والمعانى هى التى تقع لتكون كما جاء بها القرآن.

قلت: بل هما معاً.

قال: نعم هنا هو الحل والتفسير الوحيد، هما معا فخالق هذه هو منزل ذاك. الآن قل لى، فإن عجائب هذه الكلمات كادت تنسينى ما أردت سؤالك عنه. ألم تقل لى من قبل: إن القرآن يأتى بالحروف تتعاقب فى الكلمة فى سهولة، فاللسان يتدفق بينها فى رفق وسيولة؟

قلت: بلى قلت هذا.

قال: فقد واجهتنى كلمة وأنا أقرأ لم أر أثقل منها فى لسانى، فإنه لينطقها وكأنه مشدود بثقل ينتزع منه حركته ليخرج الحروف انتزاعاً.

قلت: وما هى هذه الكلمة الثقيلة؟

قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ** ﴾ [التوبة: ٣٨]. فإن ﴿ **اثَّاقَلْتُمْ** ﴾ هذه ثقيلة فى اللسان حتى لكأنه مقيد فى أطراف الأسنان ينتزع نفسه منها انتزاعاً.

قلت مبتسماً: كعهدى بك لا تزال تبحث وتنقب حتى تقع ببحثك وتنقيبك على وجه جديد من إعجاز الكلمة فى القرآن مضئ.

قال مستغرباً: وهل ثقل الكلمة فى اللسان إعجاز؟

قلت: وأى إعجاز! فقل لى: ما هو معنى ﴿ **اثَّاقَلْتُمْ** ﴾ الثقيلة على اللسان هذه؟

قال: قد بحثت عن معناها فوجدته: تثاقلتم وتباطأتم وتقاعستم.

قلت: فلماذا ترك القرآن تثاقلتم اليسيرة التى يطير بها اللسان إلى ﴿ **اثَّاقَلْتُمْ** ﴾ التى يشد تاليها لسانه فيها شداً؟

قال: وهذه تفكرت فيها وبحثت عنها فلم أجد لها سبباً، فـ ﴿ **اثَّاقَلْتُمْ** ﴾ هى تثاقلتم فى معناها، وليست بالتى تعطى صوتاً يصف الحدث ولا بالتى تثير صورة. فهى لا تزيد عنها شيئاً اللهم إلا ثقلها.

قلت: فثقلها هو سر نحت القرآن لها يكون إعجازه بها، ولا يرد على البشر إلا تثاقلتم نظيرتها الخفية.

قال: فإعجازها هو هذا الثقل؟!

قلت: تماماً. فكما أن القرآن يضع لك الكلمة فى موضع تسكب المعنى فى نفسك وتنقلك إلى مسرح الأحداث بأذنيك، ويأتى لك بأخرى تنفذ إليك

وتضعك فى الحدث بعينيك، يأتيك بالكلمة تحس بها المعنى ويتسرب إلى نفسك من لسانك؟

قال: كيف؟

قلت: الآية تصف تثاقل بعض المؤمنين عن الجهاد وثقله عليهم. فإذا أمروا به قاموا خائرى العزم ذاهبى الهمة، تشدهم أثقال الأرض وجواذبها فينتزعون أجسادهم منها بجهد جهيد، فما تفلت أجسادهم من الأرض إلا بشدة ومشقة وبعد لأى وعنت.

قال: آه! فاختار القرآن ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ ليشد اللسان بها إلى الأسنان فلا ينتزع نفسه منها إلا بجهد جهيد ولا يفلت إلا بعد لأى ومشقة.

قلت: وبهذا يجعلك القرآن تفهم المعنى وهو أنهم متثاقلون مشدودون إلى الأرض تمسكهم عن أمر السماء، ثم مع فهمك للمعنى تحسه فى نفسك بثقل الكلمة التى تعبر عنه فى لسانك وانطباق عسر حركة اللسان فيها مع عسر حركة أجسامهم.

قال: فإذا كانت ﴿ صَرْصَراً ﴾ ذات مؤثرات صوتية، و﴿ الْتَقَمَهُ ﴾ تثير مؤثرات بصرية، فـ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ تخترق بالمعنى النفس من موثراتها اللسانية.

قلت: وإن سر هذه الكلمة لفى هذه الثاء المشددة. فإن الثاء تخرج من تلامس طرف اللسان وانطباقه مع أطراف الثنايا العليا، فجاءك القرآن بـ ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ مشددة الثاء لتقف رغماً عنك عليها، فيزيد زمن تلامس اللسان مع الأسنان فتنساب إلى نفسك من لسانك أجساد المتثاقلين تلتصق بالأرض التصاق اللسان بالأسنان ونفوسهم تتمنى سكون الزمن لا يتحرك هو حتى لا تتحرك هى.

قال: إن هذا الاختيار والصيغة للكلمات لعجيب! فكأن الكلمة ليست معنى تؤديه فقط، وإنما هى معنى وقوة قاهرة تحمل هذا المعنى إلى النفس.

قلت: والإعجاز أنها قوة خفية تمتزج بالمعنى فلا تستطيع أن تفصلها عنه،

بل لا تفطن لها إلا بعد جهد جهيد. فإذا كان القرآن يحدثك عن أصوات جاءك بالكلمة تسمعك إياها، وإذا كان يصف لك حدثاً أتاك بالكلمة تجسده مشهداً أمامك، وإذا كان يعبر لك عن حركة فى خفتها ونشاطها أو ثقلها وبطئها أجرى لسانك أو قيده على قدر ما فى المعنى من الحركة: إن نشطت نشط، وإن ثقلت ثقل.

قال: أتعرف ما الذى أتفكر فيه الآن؟

قلت: ماذا؟

قال: لو أن بشراً أراد أن يحاكى القرآن فى جملة من جمله لكان عليه أن يتصور المعنى أولاً من كل جوانبه، ثم يضع أمامه المعاجم وينقب فيها ليجد الكلمة تصف المعنى على حقيقته وتحيط به فلا يخرج عنها.

قلت: وهل هذا يكفى؟

قال: انتظر! ثم بعد ذلك يحتاج للتنقيب ليخرج من الكلمات ما يتناسق مع هذه الكلمة ويتجانس معها.

قلت: وهذا أيضاً إن استطاعه لا يكفى.

قال: ثم بعد ذلك لابد له من أن يقلب المعنى الذى يريده من كل وجه ويصنفه أهو سمعى أم بصرى أم نفسى أم حركى ولسانى، ثم يختار من بين الكلمات التى انتقاها الكلمة التى هى أليق بتجسيد هذا المعنى صوتاً أو صورة أو حركة أو أثراً. ثم...

قلت مبتسماً: وماذا يفعل بعد ذلك؟

قال وهو يعبث فى رأسه: ماذا يفعل؟ ماذا يفعل؟

أراه سيقع فى حيرة شديدة واضطراب لاحد له لكى يوفق بين هذه جميعاً، فلا أعرف كيف سيختار الكلمة فيجعلها دقيقة فى معناها، وفى الوقت نفسه متجانسة مع جاراتها، وأيضا تغزو النفس بصورتها أو بصوتها أو حركتها.

إن الأمر ليبدو أشبه بالمتاهة الشديدة العسر، لا يملك المرء إلا ان يقف أمامها حائراً لا يتقدم ولا يتأخر.

فهو إن أوفى بوجه أخل بالثانى، وإن أراد أن يفى بالثانى اختل الثالث، وإن أوفى بها جميعاً فلا أعرف كيف يجمعها جميعاً فى كلمة واحدة.

قلت: وكل ما تقول فى جملة واحدة. فكيف بك بمن أراد محاكاة الآيات والسور؟

قال: محاكاة الآيات والسور؟!

إن دون ذلك كما كانوا يقولون خرط القتاد.

ثم أطرق إلى الأرض فى شرود وهمس كأنه يكلم نفسه: على أنى سأحاول؟

قلت: ماذا؟

انتبه من شروده وقام مندفعاً وهو يقول: لا شئ. لا شئ.

* * *

openkandl.com